

المحاضرة الثالثة : المفاهيم القاعدية في علم النفس المرضي

الهدف:

- التعرف على المفاهيم القاعدية في علم النفس المرضي.
- التعرف على مفهوم البنية في علم النفس المرضي.

أولاً: البنية

1- مفهوم البنية في علم النفس المرضي:

مصطلح البنية تناوله العديد من المحللين النفسانيين غير أنه إرتبط أكثر بجون بارجوري (J. Bergeret) حيث أدرجه في مسألة السواء و اللاسواء في إطار علم النفس المرضي التحليلي، مع تركيزه على نقطة العبور بين الحالتين، فالشخص السوي يمكن أن يصبح غير سويًا في أي لحظة والرجوع إلى نقطة التثبيت الأولى في مراحل النمو الجنسي للطفل (النكوص)؛ وبالتالي فإن البنية هي المصطلح الموجه لهذه الاضطرابات والتحويلات التي تحدث للشخص؛ فبعدما كان فرويد يعطي الأهمية الكبرى لمراحل النمو الجنسي الثلاث ، فإن بارجوري وفي إطار التصنيف السيكوباتولوجي منح للعلاقة بالموضوع و مفاهيم الذات والنزوة. فيشير إلى أن ماضي البنية هو مراحل النمو (الترجسية، الاتكالية و الثلاثية الاوديبيية)، أما مستقبلها فهي الطبع أو المرض.

تعريف البنية:

يعرف بارجوري البنية النفسية على أنها ذلك التنظيم الثابت و النهائي لمكونات ميتاسيكولوجية أساسية سواء كانت الحالة مرضية أو سوية.

ويعبر كورنو (J.Cournut) عن المفهوم الدقيق للبنية بأنها " كيفية لبناء الأنا في انبثاقه عن الهو تحت رقابة الأنا الأعلى، لذلك فهي تتصف بمفهوم موقعي وبالتطور السابق، فهي ثابتة ومكتسبة ، وعليه يكون التوظيف النفسي في حالة ديناميكية واقتصادية، بما أنه يحدد كيفية سير تلك البنية في حركية وفي الحالة الراهنة للأفراد".

مفهوم البنية بين العادي والمرضي:

حسب بارجوري فمفهوم البنية في إطار علم النفس المرضي التحليلي يرتبط بمسألة السواء و اللاسواء، مركزا على فكرة هشاشة الخط الفاصل بينهما، إذ أن الفرد السوي يمكن أن يصبح في أي لحظة لاسويا و ينتكس شرط أن لا يتعلق الأمر بتنظيم اعتمادي، لأن هذا التنظيم لا ينتمي إلى بنية مؤكدة. ويشير بأن تشخيص السواء يتطلب فحصا للطريقة التي يتلاءم بها الشخص مع بنيته النفسية الخاصة، فمفهوم السواء لديه يتعلق بحالة التلاؤم الوظيفي الناجح ضمن بنية ثابتة فقط، سواء كانت عصبية أو ذهانية، في حين تناسب المرضية انقطاعا ضمن نفس الخط البنيوي.

وكان فرويد قد أشار إلى البنية من خلال ظهور الاضطراب النفسي تبعا للتصدعات و يقول في ذلك. "إذا سقط بلور من الكريستال، فإنه لا ينكسر بأي حال من الأحوال، بل حسب خطوط الضعف والقوة التي

حدثت عند تكوينه، وهي خاصة بكل جسم، وهذه الخطوط تبقى خفية حتى ينكسر البلور، أو يوضع تحت جهاز خاص، وبالنسبة لبنية الشخصية فهي تسلك نفس المدرج.

ويرى بارجوري بأن السواء يجب أن يكون مستقلا عن مفهوم البنية لأن الفرد بإمكانه أن يكون سويا دون أن يبلغ المستوى الأوديبي، وعلى هذا الأساس فقد قابل بين ما سماه البنيات الحقيقية (العصائية والذهانية)، مع أو بدون هيئة مرضية، وبين التنظيمات البسيطة المهشة التي تصارع ضد الاكتئاب، وذلك بواسطة الحيل الطباعية أو السيكوباتية المتنوعة والمسماة بـ "شبه السوية." و يعتبر أن استقرار البنية يحدد تطورا خطيا لتنظيم نفسي إما عصابي أو ذهاني، ويكون معوضا بنجاح عن طريق التسوية في إطار نفس الخط، وإذا لم يسعفه التماسك بين تلك الاستثمارات النرجسية و الموضوعية ينتكس الفرد في إطار ذلك الخط العصابي أو الذهاني. لذا يركز بارجوري على مفهوم الانكسار (décompensé) فيقول: إن "الانكسار" يتوافق مع كسر التوازن الأصلي الذي تم تأسيسه في مثل هذا الترتيب المعين، ضمن بنية مستقرة أساسا، بين الاستثمارات النرجسية والموضوعية".

ويعمل بارجوري بمفهوم الطبع، الذي يشكل حسبه "الصدى العلائقي غير مرضي للبنية"، والذي يفترض أن أي تنظيم بنيوي للشخصية يمكن أن يتجلى في الحياة العلائقية، سواء على شكل عناصر للطبع في حالة التكيف السوي، أو على شكل أعراض في حالة اللاتكيف والمرض. كما يعمل أيضا بمفهوم سمات الطبع ليعين أنه في: "حالة وجود نقص في البنية القاعدية، لا يبدو الطبع في حد ذاته مجهزا لإنجاز مهمته العلائقية بطريقة متكيفة، لذا يلجأ الأنا إلى سمات الطبع كوسيلة نجاة من الاضطرابات، فهي تمثل إذن عمليات طبيعية إضافية، والتي تظهر سواء في عناصر دفاعية (سمات طبع بنيوية)، أو في عناصر نكوصية (سمات طبع نزوية)، وعليه فإننا نجد سمات الطبع تساهم في الإجراءات الوظيفية، سواء لبنية ما مندرجة في حالة السواء، أو لبنية أخرى نجدها في حالة معروفة على أنها مرضية.

وقد وضع بارجوري ثلاث بنيات أساسية في الشخصية، البنية العصائية والبنية الذهانية، وفسح المجال لحالات اكلينيكية أخرى بين البنيتين، حيث تتميز بتنظيم أقل صلابة فلا يمكنها تكوين بنية أصلية، وهي تقع بين العصاب والذهان وأطلق عليها البنية الحدية، ويمكن تحديد هذه البنيات الثلاثة وفقا لأربعة عوامل:

1- طبيعة القلق الكامن.

2- طبيعة العلاقة بالموضوع.

3- آليات الدفاع الرئيسية.

4- الطريقة المعتادة للتعبير عن الأعراض.

2- تكوين بنية الشخصية: حسب بارجوري تتمثل مراحل تكوين البنية كالتالي:

- المرحلة الأولى: تبدأ من الولادة ويكون الأنا في حالة تمايز نفسي جسدي، لكن سرعان ما يبدأ في التمايز

تدرجياً مع خروجه من الهو، وهذا تحت تأثير النضج، والعناية، والعلاقة مع الأم، وهنا إذا كانت الظروف الداخلية والخارجية مضطربة، فسيحدث تسجيل خطوط ضعف في هذه الفترة ونقطة تثبيت كما يقول "فرويد".

- **المرحلة الثانية:** يتطور اليببدو ويتقدم في سيرورته، وتتطور العلاقات بالموضوع مع تنظيم الدوافع الجزئية، والأنا يتطور ويستعين بالآليات الدفاعية، وذلك حسب المحيط الخارجي وأخطاره، وأخطار داخلية ناجمة عن النزوات مما يسمح بتكوين تدريجي للشخصية، وهنا يتطور اليببدو ويتقدم تبعاً ل:

- العلاقات مع الوالدين، وخصوصاً الأم ثم العلاقات مع أفراد المحيط.
- تسقط كل التجارب النفسية على شكل صراعات وصددمات وتقمصات إيجابية.
- تبدأ ميكانيزمات الدفاع النفسي تنتظم بطريقة تفاعلية.
- تنتظم تدريجياً نفسية الفرد، وتصنف حسب العناصر الأولية، فتنتج منظمة داخلية ذات خطوط انشطار وتلاحم، والتي تكون غير قابلة للتغيير فيما بعد.

- **المرحلة الثالثة:** مع نهاية مرحلة البلوغ تكون البنية ثابتة ولا تتغير في توجهها الأساسي، وما دام صاحبها لم يتعرض إلى صدمات نفسية هامة (إحباط أساسي أو صراعات قوية... إلخ)، فيبقى ذا بنية عصابية أو ذهانية سوية، ولكن يمكن لأي حدث أن يحدث شرخاً في البنية، وذلك حسب خطوط القوة والضعف الموجودة فيها. فالبنية العصابية يتمركز الصراع فيها ما بين الأنا والنزوات، أما البنية الذهانية فيقتصر ثباتها على سيطرة الإنكار على جزء من الواقع مع سيطرت الدفاعات القديمة، وتوجد ما بين هاتين البنيتين، ما يعرف بالتنظيمات الحدية أو البينية، وتضم الأمراض السيكوسوماتية، السيكوباتية والانحرافات الجنسية. وتظهر هذه الحالات كمنظمة هشة أي تنظيمات قابلة للتغيير، وليس كبنية ثابتة لأنها يمكن أن تطور إلى مسار الذهان أو العصاب.